رواية

الإفطار الأخير

هشام شعبان



الإفطار الأخير

هشام شعبان

الكتاب : الإفطار الأخير (رواية)
المؤلف : هشام شعبان
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥
رقم الإيداع : ١٩٦٩٠ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 230 - 4

الناشر
شمس للنشر و الإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى - المقطم - القاهرة
ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : محمد بيلي







هشام شعبان

إهـــداء

إلى عزة الشناوي...

من أهدتني إياها السماء فكانت لي نورًا في ظلمة الوادي..

من أحبتني دون تكلف وتحملت غرابة أطواري..

من امتلكتني بعشقها وأغمتني بسحر عينيها عمن سواها ..

إليك يا سيدتي أهدي هذا الكتاب...

هشام شعبان

-١-

انتهى أهل القرية من صلاة العصر.. فرغ بعضهم لقراءة القرآن، والبعض الآخر يسبِّح الله ويستغفره على سيئات ارتكبها ولا يزال طوال عامه المنقضي منذ انتهى رمضان الماضي، الغالبية خرجت، كلٌ يسعى.. منهم من ركب حماره الذي أخرج لسانه يلهث بسبب الشمس الحارقة لنهار يوليو، ومنهم من سار على الأقدام يجرها في خطوات تتباطأ للخلف لا للأمام، درجة الحرارة المرتفعة جدًّا هذا العام كان تأثيرها أكبر بكثير من لذة الصيام الشاقَّة، متعة الشهر الكريم التي اعتاد عليها أهالي قرية "الحجر" تلاشت جزئيًا..

لم يكن المناخ الحار وحده سببًا في تلك الحالة النفسية التي طبعت وجوه الأهالي بتقسيمات وخطوط طول ودوائر عرض، بل التقدم في عمر الحياة، هذه الدنيا الفانية التي انتظرت أجيال متعاقبة موعد انتهائها وفنائها، وكأن

الصراع هنا بينهم وبين تلك الدنيا التي تأبى أن تقتلع جذورها بشكل سلس وسهل..

الهموم مرسومة على خريطة المنازل التي اتخذت شكلاً تقليديًا باهتًا مثل كثير من القرى غيرها، لا شيء يعلو الطوب الأحمر الخرساني ولا حتى الطوب اللبن الذي غطى أطراف القرية ناحية المزارع والحقول، دكاكين صغيرة بدائية تقترب من بدايات القرن العشرين.. هنالك يجلس الشيخ عيسوي إمام جامع "الدعوة"، هذا المسجد الذي يتكون من طابقين؛ أحدهما لعقد حلقات الدرس وتحفيظ القرآن لأطفال البلدة.

يبدو من تكوينه المعماري أنه كلف الأهالي آلاف الجنيهات، فالزخارف المنقوشة ومساحته الواسعة وما به من سجاد، ومأذنة عالية لا داعي لها سوى إزعاج الجيران؛ أمور جميعها تجعل من هذا المسجد منارة للأهالي جميعًا، منارة تعلو منارة المدرسة والجامعة، فتجد شباب القرية وأطفالها يجلسون أمام الشيخ عيسوي في هيبة ساكنة لا يضاهيها شيء.

واقعٌ ضيقٌ تعيشه البلدة، يخيِّم عليه غيوم غريبة في هذا الوقت من العام، ضربات رعد وبرق كأنها رسائل من السماء، رسائل للتنبيه والتحذير من واقع ضال ونفوس مريضة تأبى الشفاء، كأن الصمم أصاب أهلها، فأضحوا يعيشون دون أن يتوقفوا هنيهة للتفكير أو مراجعة النفس الأمَّارة بالسوء.

-٢-

يُخرج الدكتور "محمود البياض" أحد هواتفه المحمولة الثلاث ويبدأ بحثه عن رقم الشيخ عيسوي حتى يجده، يستقبل شيخنا عيسوي المكالمة بوجه مسرور لدرجة احمرَّت لها وجنته، فيقطع حلقة درسه ويهمُّ خارجًا بعيدًا عن تلاميذه كي يبدأ حديثه مع البياض بلهجته الريفية المعتادة وهو يتجول في باحة المسجد وأركانه.

- دكتور محمود بنفسه دا شرف كبير لي ولكل أهل صهرجت، أي والله.

- يا شيخ عيسوي إحنا في أيام مباركة وعمل الخير إنت عارف مقدرش اتأخر عنه أبدًا.. ومتنساش أنا من "الحجر" ودول أهلي وناسي لازم أعملهم إفطار جماعي.

- الله الله أصيل وابن أصول طول عمرك يا دكتور محمود.. دا أهل البلد كلهم بيعزوك ويقدروا أعمالك الخيرية.

– طيب طيب هبعتلك محمد ابن أختي تخلصوا الموضوع دا.. يا شيخ عيسوي بركاتك معانا الانتخابات قربت.

– يوه يوه يوه ودا كلام يا دكتور دا إحنا وراك لحد ما تمثلنا تحت القبة.

يغلق كلاهما الهاتف.. يميل محمود بظهره على كرسي مكتبه بقناته الفضائية التي يملكها، ينفخ دخان سيجارته الـ LM وهو ينظر إلى شهادة الدكتوراه في إدارة الأعمال التي حصل عليها بمبلغ ١٠ آلاف دولار من جامعة كامبريدج!، أثناء حلمه بالكرسي والمقعد البرلماني يدخل عليه عبد الله بفنجان القهوة.. يرتشف منه، ويهم خارجًا بسرعة البرق بعد أن استقبل رسالة من مجهول.

عاد الشيخ عيسوي لتلاميذه واستكمل معهم الجزء الثاني من درسه اليومي عن عمل الخير وجزاء الصدقة في الدنيا والأخرة، كل هذا وهو يفكر في عمولة الإفطار الجماعي التي تنتظره وينتظرها بلهفة.

مرَّ يومان.. على كوبري البلدة ينتظر "محمد عبده" مجيء الشيخ عيسوي، كان محمد شابًا أشقر بشعر بني ناعم،

فشل في مراحله المختلفة بالتعليم، حتى أنقذه خاله بتعيينه مديرًا ماليًا بالمحطة الفضائية خاصته.. الشعور بالنقص هو صديقه، غيَّر ديكور الغرفة وأتى بخزانة ذات أرقام سرية، ووجد نفسه في التسلط على العاملين كلما طرقوا باب غرفته مع اليوم الأول من الشهر طلبًا للراتب.

اعتاد المرور بمدير البرامج في انتظار إجابة بخصم لأحد المعدِّين.. سلسلة مفاتيح تصدر وسوسة مزعجة كلما وطأت قدماه موطئ قدم، وسِنة ذهبية تلمع كلما انفرجت شفتاه ضحكًا وعندما يتثاءب، بدأ منذ عدة أشهر التجهيز لشقة الزوجية في منْزلهم بقرية "الحجر"، واعتاد الاجتماع يوميًا بفاروق ووليد العاملين بالقناة، كي يسرد لهما أخر المستجدات، وكيف أن سعر الخشب ارتفع للضعف، وكذا أجرة الصنايعية. ثقافته المحدودة قابلها بشراء أغلى ماركات الملابس، وسيارة "نيسان صني" تسد شارعهم كلما حضر إلى البلدة، بقميص أبيض وبنطال أزرق من الكتان ينتظر على كوبري القرية ماسحًا جبهته بعدما تصبَّب العرق عليها.

حضر عيسوي مهرولاً على دراجة "أحمد عثمان" البخارية.. ينْزل من عليها بجسده المترهل ويأخذ صاحبنا في جولة بالبلدة، نحو نصف الساعة. اتفقا خلالها على تنظيم إفطار جماعي لأهالي القرية في جامع "الدعوة"، تسلّم الشيخ عيسوي مبلغًا من المال ورحل.

في منْزله ارتمى على سريره لأخذ قيلولته اليومية المعتادة بعدما أخبر زوجته أن توقظه قبل المغرب، ذهبت هي لتدبر أعمال المنْزل ورعاية الأطفال، فمرّت الساعات حتى نسيت الزوجة إيقاظ زوجها، نهض كالمجنون:

– الساعة كام.. إيه ده.. يا مرة يا بنت الكلب.. أنا مش قايلك تصحيني قبل المغرب..

في ثورته الهائجة تلك وهو يمسك بشعر رأسها إذا بالشيف عبده يطرق الباب. توارت هي في غرفة داخلية بعدما أخذت أطفالها الباكين ولملمت خصلات شعرها المقصف، مجففة دموعها بطرف كُمها، أما الشيخ فوقف يهندم نفسه سريعًا أمام المرآة قبل أن يفتح الباب..

كان الشيف "عبده" شابًا في مقتبل العمر غير متزوج، متعهد الأفراح والمناسبات في قرية "الحجر" والقرى المجاورة..

بعد التحية والسلام دخل إلى صالة المنْزل المزينة بآيات من القرآن وأحاديث من السنة النبوية، كان أبرزها قوله تعالى:{ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً }.. وقوله تعالى: { وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ }. وقول الرسول الكريم: " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ".

تبادل الاثنان الحديث، فأخبره الشيخ عيسوي بضرورة تجهيز كمية كبيرة من الطعام من أجل حفل إفطار جماعي ينظمه الدكتور البياض لأهل بلدته، لم يبدِ الشيف عبده سوى اللهفة لسرعة تنظيم هذا الإفطار، الذي بلا شك سيجني من ورائه أُجرة محترمة، أخذ عربون الصفقة الذي جعل عينيه تتلألأ وانصرف حتى يشرع في عمله.

-٣-

- فين الدكتور يا عبد الله..

هكذا سأل حسن مدير البرامج بالقناة.

- الدكتور مشي فجأة والله يا أستاذ حسن، حتى مكملش القهوة.

- غريبة دي!

صمت قليلاً وهو يحرك أصابعه على المكتب فتصدر صوت طبلة تدق ناقوس.. وابتسم بعدما ربت على كتف عبد الله، ووضع حاجياته في دولاب وأغلقه بإحكام.. استغل حسن غياب رئيس القناة من أجل الإنصراف باكرًا اليوم، فلديه موعد مع خطيبته رقم ١٠، والتي يمني النفس أن تتم هذه المرة على خير، خرج مسرعًا ضاربًا بالبرامج والهواء عرض الحائط وتاركًا رسالة لزميل له "ظبط إنت بقى الليلة دي"..!

في انتظارها له بناصية مسجد الحصري لم تسلم "وعد" من نظرات القوم وإيحاءاتهم الجنسية الواضحة، ببنطال جينز التصق بفخذيها الممتلئين، و"بودي" أبيض أظهر بروز سنتيانها الأحمر، تنتظر حسن، الذي كان قد تعرَّف عليها خلال إجرائه فحوصات طبية لمعاناته من مشكلات بالحالب! لم يصارحها قطعًا بمحاولاته التسع السابقة لنيل شريكة الحياة، ظنًا منه أن هذا الأمر يخدش كبريائه، وهو الذي طالما تعرَّض للسخرية من أصحابه لفشله المتكرر في إتمام أي مشروع زواج.

التقط يدها وهي تمسك خصرها، مستسلمًا لوصلة اللوم والعتاب على التأخير، لم يلبثا طويلاً بالشارع حتى استقلا التاكسي نحو سينما قريبة، تجلس على كرسيها بجسد يفور كلما مرَّ بها مشهد حميمي يقبِّل فيه البطل حبيبته أو يحتضنها حتى تلامس شفراها صغيره، بجانبها حسن كالتيس الخامل، دفن نفسه في صندوق حجم عائلي من الفشار المملح..

تتوالى تنهداتها وتقلباتها على الكرسي، تكتم ضيقها وهي ترى آخرين حولها يعيشون لحظات ماجنة، تستأذن للذهاب إلى حمام السيدات، هناك تستسلم لرغبتها الجامحة وهي تغمض عينيها وتعض شفتيها بأسنانها حتى ترتعش وتبلل ملابسها الداخلية السوداء.. تخرج أمام المرآة تعيد هندمة ملابسها وترجع للاستقرار بمقعدها في منتصف الصالة وقد انتهى حسن من الفشار.!

– ٤ –

كالعادة يمسك بين إصبعيه سيجارته وينفخ منها في توترٍ وترقب.. أصابع قدميه لا تكف عن الحركة داخل حذاء إيطالي الصنع، نظرات متبادلة بينه وبين السكرتيرة، ونظرات دورية على ساعته التى تخطت الحادية عشر مساءً، أخيرًا يؤذن له بالدخول إلى غرفة ملكية في الدور التاسع من هذا العقار الشامخ بشارع مصدق في الدقي، تغطي أرضيتها سجادة أثرية تعود إلى زمن دولة العباسيين، وسط إضاءة خافتة جلس على حافة الكرسي المقابل للمكتب..

يأتيه صوتٌ أجشٌ صارمٌ من الشخص الذي أعطاه ظهره:

– نازل الانتخابات مستقل ولا على قايمة حزب يا محمود؟

يجيبه بارتباك:

– لوحدي.. مســـ.. مستقل يا أفندم.

– طيب وكده هتعرف تكسب!؟

- أهو بحاول سيادتك.. دا أنا حتى رحت لأكتر من رئيس حزب حتى أعوانا وكلهم خذلوني.

- طيب أنا عايزك تركز وتشتغل كويس.. إنت أحد كوادرنا الفترة اللي جاية وعايزينك معانا.

- دا شرف كبير لي معاليك.. بس أنا بطمح في كرمكم معايا.

- اطمن.. المقابلة انتهت.

يخرج إلى سيارته المرسيدس ليأمر سائقه مختار بالانطلاق نحو القرية فورًا، يصلا قبيل الفجر، ينْزل مختار من السيارة ويطرق باب الشيخ عيسوي بشدة، شدة أفزعت عيسوي وزوجته وأولاده بل والجيران، نهض عيسوي بكلسونه الأبيض وهو نصف مغمض يفتح والعماص يملأ عينيه، إذا به يجد الدكتور البياض فتتهلل أساريره..

- دكتور محمود معقولة! اتفضل يا بيه..

- اركب يا عيسوي مفيش وقت..

تناوله زوجته التي استيقظت ووقفت خلف الباب، جلبابه وخرزانته. يرتدي ثيابه في السيارة وهو على عجلة من

أمر البياض، تتجه السيارة مع ظهور نور الفجر إلى قصر محمود الكائن بأول البلدة، عيسوي لا يكف عن الثرثرة بعبارات الترحاب والفرحة... يدخلان من الحديقة التي امتدت أغصان أشجارها هنا وهناك نتيجة لإهمالها ورحيل عم حنفي الذي اعتاد تهذيبها في الأيام الخوالي.

بعد مشادة مع مفتاح المنْزل والكالون؛ ينفتح باب القصر بصوت أزيز تقشعر له الأبدان.. يدخل الثلاثة، التراب يغطي الحوائط والآثاث، يهرول عيسوي لتنظيف باحة المنْزل، ويأمر البياض سائقه بعمل شاي لهم.. جلس الاثنان، بدأ البياض الحديث مقتربًا من عيسوي الذي فتح عينيه وأذنيه جيدًا:

— بص يا شيخ عيسوي.. إنت عارف إني نزلت الانتخابات اللي فاتت وماتوفقتش وأديك شوفت صرفنا قد إيه.. المرة دي غير أي مرة، الراجل الكبير معانا، أنا لسه جاي من عنده ليلة إمبارح، مرحبين وعايزيني معاهم، بس إنت عارف لازم الشويتين قدام الناس عشان القيل والقال.. ولا إيه.

- كلامك صح ودماغك تتاقل بالدهب يا بيه.. وإحنا فديك الساعة، على الأقل ينوبنا من الحب جانب، بس إنت شايف مفروض نبدأ إزاي.

- جهز إنت الإفطار ونظمه كويس في الجامع.. أهو الجامع دا أنا دافع فيه آلاف، جه الوقت اللي نجني المحصول، اعزم كل أهل البلد، الصغير والكبير، الغني والفقير.. واطبع لنا يافطة كبيرة، وأنا موصي العيال في القناة يعملوا الواجب..

في المطبخ دفس مختار ملعقة ذهبية من طقم كامل ورثه محمود عن أبيه، وأعد لهما الشاي بعدما انتقى فنجانين من طاقم الفناجين المذهب..

شرب عيسوي الشاي ورحل.

في طريق عودته للمنزل سيرًا على الأقدام كانت القرية قد استيقظت جميعها، فرأى فتحية تهندم زي ابنها أمام المنْزل قبيل ذهابه للمدرسة، ركز بصره عليها وخط شاربه بإصبعيه وهو يقهقه، قاطعه صميدة وهو يجر جاموسته ويركب حماره بـ"سلامو عليكو يا شيخ

عيسوي" رد الشيخ السلام وزاغ ببصره يمينًا ويسارًا واقترب من فتحية التي كانت قد تركت الباب مواربًا، لفَّ ودار في شوارع محيطة وملتوية كنيته، وطرق باب فتحية التي بدورها جهزت نفسها بارتداء قميص نومها الفلاحي الأحمر، أغلق الباب وهو يحتضنها ويقبل وجنتيها ويهمس "فيه حد في البيت؟".. خرجت منها ضحكة عالية مفعمة بالدلع والدلال، انهار عيسوي وخرَّ صريعًا لضحكاتها، حملها بين يديه وهي تلف ذراعيها حول رقبته الشامخة ويعلوها وجهه الذي يكاد ينفجر احمرارًا من تدفق الدم إليه.. أصابعها لا تكف عن مداعبة لحيته الخفيفة التي حرص دومًا على هندمتها ورشها بعطر جاءه من الكعبة يومًا..

ارتمى الاثنان على سرير قديم متهتك مرَّ عليه زمن منذ تزوجت فتحية بـــ"عبد العال" الذي وافته المنية قبل سنتين.. بوزنه المترهل احتضنها وهي تفتح رجليها من تحته، أنفاس حارة وضربات قلب تزداد سرعتها، تتقلب فتحية يمينًا ويسارًا، مثلها مثل سمكة تموج في البحر، تعدِّل

من أوضاعها من أجل إثارة أكبر ومتعة أكثر، آهاتها تملأ الغرفة كعبير أزهار في حقل أو مشتل.. شعرها يتناثر على وسادتها البيضاء ناعمًا نعومة تصعب التحكم فيه أو إلمامه، يغطي عينيها المغمضتين من وقع الضربات المتتالية التي تستقبلها راضية.. ما لبث أن أشبع عيسوي شهوته، تلطخت هي به من الداخل والخارج، مستمتعة وهي ما تزال تئن، لا تقوى على الحركة، فقط تسترخي في سريرها الذي رغم حالته أدَّى الغرض.. لا ترغب في الاستيقاظ والعودة إلى واقعها البائس، تحلم بالعيش في غيبوبتها تلك وحلمها المؤقت للأبد..

لم يكن عيسوي بالنسبة لها سوى زبون، كغيره يأتي لدفع الأجرة واحتساء المشروب، ترك لها نقودًا على منضدة، بعدما اغتسل وخرج عائدًا لمنْزله.

-٥-

أرسلت في طَلبه لأمر مهم.. كان قد جلس على كرسي هزاز من الخشب في شرفة منْزله الذي يعيش فيه مع والدته واثنتين من أخواته البنات، يرتشف من فنجان القهوة وترتسم على وجهه علامات الضيق بعد مشاجرته مع "وعد" فور خروجهما من السينما أمس.

بنبرة خبيثة دعا أخته لتجهيز طقم الخروج له.. قميص وردي وبنطال أزرق، ارتداهما بعدما جزَّ عانته وأطلق سيفون الحمام ليغرق ما تناثر من الشعر فى الأركان وعلى الأرض..

أمام باب العقار رقم ١٢ بأحد أحياء مدينة نصر، يقف مصطنعًا التوتر، لا يعرف لماذا طلبته "ليلى" زوجة البياض في هذا التوقيت، ثوانٍ وينفتح الباب.. لا تنظر إليه بل تتهادى في مشيتها أمامه وهو منقاد يبتلع ريقه ويحدِّق.. بنبرة حادة :

– اقعد يا حسن..

– إزيك يا مدام ليلى عاملة إيه..؟

لا تجيبه وهي تقف عند الطاولة تصب كأسين من الفودكا، تحملهما بين يديها وتجلس ملتصقة به فتناوله أحدهما..

– كنت فين الفترة اللي فاتت ومش بترد عليَّ ليه..؟

– أصل إنتي عارفة مشغول مع محمود في القناة...

قبل أن يكمل..

– مبروك الخطوبة..؟

– الله يبارك فيكي بس هو لسه محصلش حاجة رسمي..

تنهض مفزوعة وعيناها تحدِّقان به وهي تمسك برابطة عنقه وتقول:

– لو فاكر إنها هتاخدك مني تبقى بتحلم.

يزيل يدها عنه برفق بعدما طبع عليها قبلة خفيفة:

– محدش يقدر ياخدني منك يا هانم.

تبتسم بعدما أزاحت عنها وشاح الرأس فانطلقت خصلات شعرها السوداء تتطاير مع هبوب هواء مروحة المكتب.. تجر صاحبنا نحو البانيو الذي جهزته قبل قليل.. تنْزع "البرنص" الأبيض وتبدأ في فك أزرار القميص الوردي الذي استسلم صاحبه تمامًا.

على منضدة من الخشب العتيق، بها درج مغلق بقِفل يصعب التعامل معه.. جلس "حمدان" على كرسيه بعد العصر وهو يدخن الشيشة بنهار رمضان، على مرأى ومسمع من الجميع الذين أتوا لاستئجار ملعب كرة القدم؛ الذي بناه بعدما قام بتجريف نصف فدان أرض وغطاه بالنجيل الصناعي، مشروع مكسبه مضمون تمامًا.

حمدان.. رجل غير متعلم ورث عن أبيه ٤ أفدنة ومنْزل كبير يعيش فيه مع أخيه الأصغر حاتم، تزوج قبل ٣ أعوام ولم ينجب حتى الآن حتى إنه هدد زوجته بالطلاق إذا لم تكف عن إلحاحها بضرورة ذهابه إلى الطبيب، وكم من مرة سمع الجيران صوت صراخها ونحيبها جراء ضربه لها بسبب الموضوع ذاته..

يدخل عليه المهندس "عنتر" مدير الإدارة الزراعية بتلك الناحية، ممسك بسبحته ذات التسعة وتسعين حبة، يردد "سبحان الله والحمد لله والله أكبر"..

لقاء شهري متكرر بين الاثنين، يأتي فيه عنتر للحصول على ٥٠٠ جنيه نظير عدم تحرير محضر التعدي على الأراضي الزراعية، يلتقف الظرف المعتاد ويهم بالنهوض.

- على فين يا باشمهندس إنت منورنا..
- معلش بقى يا حاج حمدان عايز ألحق صلاة العصر قبل ما المغرب يكبس علينا.. سلامو عليكم.
- هو إنتم مش ناويين تخفوا عننا شوية.. دا الملعب مش جايب همه..

يعود عنتر إلى مقعده بعدما وقف لحظات ينظر لحمدان بابتسامة خفيفة:

- يا حمدان يا خويا الفلوس دي بتتوزع.. أوعى تكون فاكر إني باخد منك كده عشان أنا محتاج لا سمح الله.. بس إنت عارف باقي الزملاء في الإدارة.. طيب مش هخبي عليك ديك النهار الأستاذ ماجد مدير مركز الشباب كان رايح على المديرية يبلغ، ولولاي أنا كان زمانك في أبو نيكلة.. كُل عيش وربنا يرزقنا ويرزقك بالحلال.. سلامو عليكم..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- آه بالحق يا باشمهندس، بيقولوا محمود البياض عامل إفطار جماعي الأسبوع الجاي..

- غريبة دي اللي عمرنا ما شوفنا منه حاجة حلوة.. عمومًا ربنا يصلح أحوال الجميع..

يرحل عنتر بعدما امتلأ جيبه بعشرات الجنيهات، تاركًا حمدان ينفخ دخان شيشته، وهو يسبه ويلعنه ويدعو الله أن يأخذه بقدر جشعه الذي لا ينتهي هو وباقي موظفي القرية!

- إنت يا فقر يا ابن الفقر..

هكذا نادى على صبي القهوة المجاورة للملعب وهمَّ ناهضًا من على كرسيه بعدما اطمأن لإغلاق الدرج بإحكام وأمسك بياقة قميصه..

- مش قلتلك مية مرة أنا بشرب قص البرج مش السلطان..

- والله دي قص البرج يا حاج حمدان..

– وكمان بتكدب.. انده لي المعلم بتاعك يلا غور..

حضر معلم قهوة "الفيروز" ممسكًا بنبوته وتهتز الأرض من وقع خطواته، خاصة وأن أرطال الدهون بنت جبالاً على جسده.. أمسك بيد حمدان وأجلسه وقال:

– يا حمدان مش كل ما عنتر يجيلك أول الشهر تعمل كده.. الولد جابلك القص اللي إنت عاوزه.. روق كده والحجرين دول على حسابي.

– أنا زهقت واتخنقت يا معلم مش عارف ألاقيها منين ولا منين.

ربت على كتفه بعدما لمح بنظره سيارة المعسل وقد وصلت أمام القهوة، استأذنه وعاد، نادى على صبيانه لإنزال ١٠ كراتين معسل جاءته مجانًا؛ مكافأة إنهائه التعامل مع شركة المعسل الأخرى، وما قام به من تشويه لسمعتها في الناحية كلها.

-٧-

ارتقى عبده الموتوسيكل خاصته من أمام منْزله، وانطلق بعدما صلى الفجر جماعة مع الشيخ عيسى وكثير من أهل القرية، ممن يحرصون على فروض الله في العشر الأواخر، لعل أحدهم يدعو دعوة فتصادف ليلة القدر.. من خلفه كان حسونة بالسيارة ربع النقل التي يعمل عليها.. دلف الاثنان عدة قرى مجاورة حتى وصلا إلى مزارع الحاج عويضة للاتفاق على شراء حاجات الإفطار، من طماطم وبطاطس وفلفل وبقدونس وبصل وغيره.. كان عويضة نائمًا عندما انتظرهم خليفة وفتح لهما المخزن، هذا المكان المغلق فيه ثلاثة نوافذ صغيرة يعشِّش فيها البُوم وتحفر القوارض في حوائطه أنفاقًا، فئران تجري في كل مكان، وكرسي عتيق من الأبنوس أمامه منضدة بدفتر الحسابات. الخضروات تملأ الأرجاء في أقفاص صُنعت من جريد النخل، ورائحة – لو زيارتك هي الأولى – تسد لها الأنف وتتوقف الرئتان عن وظيفتهما ويخرج الجوف ما فيه.

جلس خليفة على كرسي معلمه، وانحنى للوراء بعدما كان قد جهز الولعة لشيشته، وسأل عبده:

– ها يا معلم عبده، نجيب من الأقفاص ولا زي كل مرة؟

انفرجت شفاه عبده انفراجة خفيفة وخبيثة، وأخرج سيجارة من جيب جلابيته القطن وهو يشير برأسه بالنفي، ويزيغ ببصره إلى غرفة في أخر رواق المخزن، ضحك خليفة وأخرج سلسلة مفاتيح وناولها لحسونة الذي هرول إلى الغرفة المقصودة، كُحة وسعال بمجرد فتح الباب وخنافس وصراصير تجري هنا وهناك..

كانت الخضروات في تلك الغرفة قد فسدت ويبيعها الحاج عويضة بسعر أقل، فهو الذي وضع على باب مخزنه لافتة "عرض وطلب.. خيار وفاقوس"، لم يبال حسونة بالرائحة التي اعتاد عليها من زياراته المتعددة مع عبده في كل فرح أو عزاء أو طهور، وبدأ سريعًا حمل الخضار إلى سيارة الربع نقل بعدما شمّر ذراعيه وربط جلبابه من المنتصف، ليظهر سرواله الأبيض..

في تلك الأثناء أخرج عبده رزمة نقود وألقاها نحو خليفة، الذي وضع الشيشة جانبًا واستقام في جلسته وبدأ يعد:

- واحد.. الله واحد.. اتنين.. تلاتة.. كده قليل يا أسطى عبده.

- قليل إزاي بس يا معلم خليفة ما إحنا كل مرة كدة، وبعدين إنت عارف شوية البالة اللي بناخدهم، أنا مش واخد تفاح أمريكاني.. ولا حتى قفص طازة..

قالها معترضًا طريق حسونة من الغرفة إلى الربع نقل، فدفس يده في حجره الممتلئ بالطماطم العفنة، وأخرج حبات ورماها على منضدة خليفة فلطخت صفحات الدفتر:

- إيه رأيك يا معلم!

- بقولك إيه يا أسطى عبده.. دا عرض وطلب، والمرة دي والله جايبين كيلو الأوطة اللي مش عاجبك دا بجنيه ونص.

- بجنيه ونص فتاخد مني اتنين ونص.. يا صاحبي الشغلانة مش هتجيب همها كدة، وبعدين المرة دي

حاجتك بايظة خالص، دي فاضلها كام ساعة واللي ياكلها يتسمم..

- طيب أنا هعمل معاك الصح، هديلك كيلو على البيعة من كل نوع، بس هز فلوسك شوية.

بدا على وجه عبده نوعٌ من الارتياح، فسلّم خليفة باقي مستحقاته وخرج عائدًا إلى مطعمه مع حسونة.. كانت القرية قد استيقظت عندما شرع في تجهيز أواني الطهي الكبيرة..

-٨-

يقف في طرقة طويلة بعيادة خارجية أمام غرفة العمليات، يجول في الأرجاء وهو ممسك بهاتفه المحمول، يحاول الوصول لوالده لكن الأخير لا يجيب، خلع بدلته التي تخنقه وفتح أزرار قميصه العلوية.. لمبة الطرقة تنطفئ وتعمل تلقائيًا كأنها شهيق وزفير، وتصدر أزيزًا يشبه أزيز باب خشبي في الشتاء تشبع بالماء فانسدت مسامه.. ينتظر خالد في خوف وقلق، وأمامه ممرضة أربعينية تنظر إليه من تحت نظارتها الكبيرة وهي تهمهم وتتمتم، وعلى وجهها علامات اشمئزاز واستنكار وتشفي..

يدخن سيجارة تلو سيجارة وعقله لا يقوى على التفكير.. بطارية هاتفه تكاد تنفذ، يُعيد محاولات الاتصال بوالده البياض دون جدوى، وكذا أمه.. قلق وقشعريرة في جسده من أن يحدث مكروه لصديقته في غرفة العمليات فيكون هو المسئول، فهو الذي أصر عليها أن

تجهض ما في بطنها إخفاءً وسترًا لفضيحة ستطول والده الذي يستعد للانتخابات.

ما بين النظر إلى عقارب ساعته وطقطقة أصابع يديه مرَّت أكثر من خمس ساعات، بلغ السيل منه الزبى، أعصابه انفلتت وارتفع الأدرينالين في دمه كمؤشر بورصة في افتتاح التعاملات، ضرب باب غرفة العمليات بقدمه بقوة كادت أن تزلزل المبنى كاملاً بعد أن أحدثت ضجيجًا انسكب على إثره كوب شاي أخضر على مكتب الممرضة..

انفتح الباب بشدة.. وقف مذهولاً لا يبالي بعمليات الشد والجذب التي تقوم بها الممرضة، يرى أمامه صديقته وقد أغرق دمها السرير والأرضية حتى تجلط، وطبيب أشبه بجزار يرتدي قميصه الأخضر المصنوع من القطن وقد تبدل لونه للأحمر، في يديه مشرط ومقص، الغرفة بأكملها تفوح منها رائحة الدماء ورائحة الموت..

قبل أن يقترب منها اجتمع عليه الطبيب ومعاونوه، أخرجوه بالقوة.. حملوه وهو يصيح بكلام غير مرتب،

ألقوه على كرسي بعدما حقنوه بحقنة مهدئ، دقائق واسترخى تمامًا، أبلغه الطبيب بوفاة المريضة أثناء العملية، وأشهر في وجهه إقرار تحمله المسئولية كاملة، زاغ ببصره فيهم جميعًا، لا يقدر على التفوه بالكلمات، يتمنى أن يكون هذا كابوس من كوابيس المخدرات المعتاد عليها، بصعوبة تناول هاتفه وحاول مجددًا الوصول لوالده أو والدته كي ينجيانه من مصيبته.

-٩-

في كابينته استلقى خالعًا ثيابه؛ في جلسة مساج خاصة تتولاها أصابع "وعد"، مغمضًا عينيه يئن من ضغط الأصابع الملساء الناعمة على عظام ظهره وكتفيه التي قاربت على الشيخوخة.

"وعد" لا تدخر جهدًا في إمتاع زبونها وعشيقها، فهي تدرك أن حياتها تبدلت من النقيض إلى النقيض بسببه، وتعرف أن "حسن" ما هو إلا واجهة اجتماعية لتخفي وراءها نزواتها الشيطانية مع البياض، الذي اشترى لها الشقة التمليك بأبراج عثمان في المعادي..

كانت الغرفة شديدة البرودة وتفوح منها روائح البارفانات الغالية.. انتهت هي من المساج بعدما قطفت قبلات ساخنة سريعة، وهو استقام مرتديًا بيجامته الحمراء والسيجار في فمه..

طلب البياض من وعد إحضار الهاتف المحمول، سارت هي أمامه تتهادى في قميص نومها الأسود المثير، لعلها تفوز بلحظات أخرى في ليلتهم التي انتظرتها منذ وقت ليس بقليل، بسبب انشغال محمود بالترتيب للانتخابات، تناولت الهاتف من جيب الجاكيت وأعطته إياه..

– لماذا يتصل خالد كل هذه المرات؟

حدث نفسه بنبرة استنكارية مليئة بالقلق وأعاد التحدث إلى ابنه:

– ألو إيه يا ابني فيه إيه؟

– بابا..

نواح وبكاء جعل الكلام ملعثمًا، ومع ضعف الشبكة لم يتبين محمود أي كلمة من كلام ابنه البكري، أعاد عليه السؤال بعدما انتفض من جلسته وراح يفتح شرفة الكابينة، انقطع الخط فجأة، لم يعرف ماذا يحدث، أخرج سيجارة وأشعلها ويده ترتعش محاولاً الاتصال بابنه مرة أخرى..

"وعد" جاءته تحاول معرفة ماذا يحدث، انفعل عليها من الارتباك والفزع، يمسك بالهاتف ويردد: "رد يا خالد.. رد يا بني، يا ترى فيه إيه! جيب العواقب سليمة يا رب"، إلى أن أجابه خالد بكلمات قصيرة:

– الحقني يا بابا أنا في عيادة في باب اللوق.. صاحبتي ماتت وهي بتعمل عملية إجهاض.

– ماتت مين.. إيه اللي إنت بتقوله.. أنا جايلك دلوقتي حالاً.

التفت البياض إلى "وعد" وأمرها بإيقاظ سائقه لحين انتهائه من تبديل ملابسه، ذهبت هي إلى السائق الذي تمدد داخل السيارة خالعًا قميصه من الحر، نظرت إليه بشهوة وهي تضغط بأسنانها على شفتها حتى كادت تنسى لماذا هي هنا، تداركت شبقها وأيقظته بسرعة كي يجهز السيارة لمشوار مهم..

أيقظته وعادت هي إلى الداخل تفكر في كلمات البياض غير المفهومة والمبهمة، لكنها لم تقوَ على أن تفاتحه في الأمر لما تراه من حالته العصبية تلك.

-١٠-

جلست متجهمة الوجه والدموع تذرف من عينيها، قلبها غير مطمئن لتأخر "داليا" كل هذا الوقت، ليس لها إلا هي، تخدمها وترعاها في سنها الكبير هذا، فتحت شباك غرفة البدروم التي يعيشون فيها، تُقلب النظر على المارة هنا وهناك لعلها تلمحها قادمة عند أول حارتهم، مرّت عليها الدقائق والساعات دون جدوى، داليا لم تأتِ بعد، ولن تأتي.. هذا ما لا تعرفه جدتها العجوز، فقد ماتت.. لا بل قتلت.. قتلت بمشرط تلم وبدمٍ بارد من طبيب فقد إنسانيته وتعامل معها كأنها دمية أو جثة يُجري عليها تجربته، ماتت داليا وفي رقبتها سلسلة وضعت بها صورة جدتها كي يتعرف عليها القوم، وكأن قلبها كان يدرك من خفقان ضرباته أن موعد النهاية قد حان، وأن الجدة المسكينة التي تنتظر أمام نافذتها هناك ليس لها إلا الله بعدها..

ماتت داليا وهي لم تحلم يومًا إلا أن تعيش كغيرها، آنسة تتمتع بأنوثتها، وزوجة تصون زوجها وتربي أولادها، عاشت تحلم أن تقود هذه الماركة من السيارات، وتذهب إلى النادي كل صباح كسيدات المجتمع، لقد رأت هذا يومًا في تليفزيونها الأبيض والأسود، وقبلت امتهان كرامتها مرات من نجل البياض لعله يدرك يومًا أنه إنسان ويتزوجها..

وقعت في الخطيئة لكن في مفهومها هذا مجرد خطأ، باعت جسدها بعدما لم تجد شيئًا آخر تبيعه، علمت قبل أيام حملها من خالد البياض وأخفت عنه الأمر لتضعه أمام الأمر الواقع، حتمًا سيتزوجها.. هكذا خالجتها نفسها، آآآه يا داليا كيف فعلتِ بنفسك كل هذا، قالتها خلال رحلة خروج الروح من القدم إلى الحلقوم، قالتها وهي تمسك بملاءة سرير الطبيب الجزار ودمها يتسرسب في خطوط طول رسمت مجاري مياه على أرضية الغرفة كلها، "قالتها قبل أجزاء من الثانية قبل الولوج إلى حياة البرزخ المبهمة"، ماذا سيقولون عنها في حارتهم التي طالما نبذتها

ونبذها أهلها، تفكر في أن يحرقها أحدهم لتصبح رمادًا لا أثر له وكأنه لم يكن، أو يذهب بها آخر إلى جدهًا لعل دموع العجوز الصابرة على بلاء السنين يغسل حفيدها من الذنب، تفكر وكأنها لا تريد أن تترك عالمها القبيح الأسود، تلعن نفسها وسرعان ما تعود للتبرير لها، ماتت داليا موتتها الأخيرة التي لن تفيق منها في صباح جديد على ابتزاز هذا وقبح ذاك، فُجر هؤلاء وسماجة من هم هنا، وأحيانًا في ذاك الوادي البعيد هناك..

-١١-

طرق مختار باب المنْزل.. سارعت في لهفة:

– داليا داليا إنتي اتأخرتي ليه..

قبل أن تكمل فوجئت بهذا الغريب عنها، فبادرته لمعرفة هويته في قلق، جعلها تبلع ريقها كأنه لقمة يابسة تأبى المضغ وتتزل في الحلق والمريء وتخترق القصبة الهوائية لتمزق الجلد وتقبض القلب..

– إنت مين.. هي داليا كويسة..؟

– إزيك يا حاجة.. أنا سواق البيه زميل داليا، هي تعبت شوية ونقلناها المستشفى، وبعتني أوديكي ليها.

– مستشفى! داليا مالها.. بنتي بنتي..

وارى جبهته وتلفت يمينًا ويسارًا وتنحنح:

– يا حاجة متخافيش داليا بخير.. تعالي معايا عشان تكوني جمبها.

ارتدت العجوز عبايتها السوداء وتلفحت بحجابها وهي ترتعش، الخوف يضرب في رأسها بمخيط، شفاهها

ترتجف، لملمت أعصابها وحملت "بوكها" وما فيه من نقود ستحتاجها المستشفى حتمًا.. هكذا حدثها عقلها..

الظلام الدامس يخيم على الأجواء وأرواح الموتى تغزو الأفق.. الكلاب تعوي ونسمات هواء رطبة في عز الصيف تثير قشعريرة في الأبدان، القبور منتشرة في المحيط، وعظام الأجداد تناثرت بفعل التربة والمناخ، لا صوت يعلو فوق صوت الضفادع التي توطنت عند بئر الماء الذي يسقي منه التربي حرث الموتى، هناك من بعيد أضيئت أنوار كالسهم تثير الفزع والطمأنينة في آن واحد، البياض مع زوجته وبجوارهما "الكلاف"، والنور المشع من السيارة هو رسالة مختار للطمأنينة..

الجدة تجلس في كنبتها الخلفية، نحيب وولولة من قبل أن تدرك حقيقة ما حدث لنجلتها الشابة، الزجاج الأسود يحجب عنها الرؤية، والظلام يمنعها من استكشاف المكان الذي تخوض فيه، مختار صامت كأنه صنم لا يجيب توسلات عبيده المشركين، يزيد من سرعته كي ينهي معاناة انتظار البلاء لدى العجوز..

أخيرًا يصل إلى البياض الذي دفن سيجارته بجوار شجرة صبار بالية ونخلة صغيرة قاومت الحياة رغم الرمال والعطش، يفتح الباب، لا تهم العجوز بالنزول عاجزة عن الحركة، زاغت ببصرها من وراء حجاب فانقبض القلب بين رئتيها..

- فيه إيه.. داليا فين؟

- تعالي بس يا حاجة داليا هناك جوه.

- جوه.. داليا جرالها إيه وإنتو مين؟!

تقدم البياض إليها وهواء الفسيح ينثر غبار الرمال فوق شعره.. رابطة العنق تتطاير فيحاول هندمتها في تصرف لا إرادي يحاول به تبرير عجزه عن النطق، تنحنح بعدما أعطاها ظهره وقال:

- بصي يا حاجة.. داليا تعيشي إنتي.. حصلتلها أزمة قلبية وهي في الشغل وجرينا بيها على المستشفى، لكن ربنا يعلم وبحق صيامي في الشهر المفترج حاولنا إننا ننقذها وفشلنا، ومعانا تقرير من المستشفى بكده..

صوت مليء بحشرجة الموت قالت:

- خدني ليها يا ابني..

تحركوا جميعًا نحو غرفة التربي، صغيرة لا تختلف كثيرًا عن ما حولها من قبور افترش فوق أرضيتها حصير، بمجرد دخولها تشعر بالوحشة، في الركن كانت داليا ممددة داخل ثيابها الملطخة بالدماء..

ما إن رأتها حتى هرولت وانكبت عليها تقبّلها لتختلط دموعها المنهمرة على وجهها وشعرها المتشابك بدم يابس، تناديها لعلها نائمة وبحاجة لمن يوقظها بوخزة في كتفها وصوت عال قرب أذنيها، وقف القوم من خلفها ينظرون بإيماء وجوههم العفنة..

زوجة البياض تنفس ضيقها في سيجارتها، تدور في أرجاء الغرفة كإنسان آلي فقد روحه وإحساسه بالآخر، لا تحمل أي تعاطف مع الحفيدة القتيلة وجدتها، تدور وتدور ولسان حالها يهمهم أن انتهوا من هذا الأمر..

الجدة احتضنت نجلتها في حديث سري بينهما لا يتبينه الحضور، تناجيها وتذكرها بمداعباتهن معًا، تبلغها ما حدث في الحلقة الماضية من مسلسلهن المفضل، وتحكي

عن الملابس الجديدة التي ابتاعتها من السوق خصيصًا لها ليوم زفافها، ضمت رأسها إلى صدرها بعد أن انقضت الهمهمة وساد السكون..

نظر البياض إلى التُربي ففهم الأخير حاجته لإنهاء الأمر كما اتفقا، تناول ظرفًا به مبلغًا من المال واتجه نحوها..

– خدي يا حاجة القرشين دول متبرعللك بيهم محمود بيه، إحنا عارفين إن مكنش ليكي غير المرحومة.. وإن شاء الله كل شهر وفي المناسبات هنبعتللك زيهم.

الجدة لا تجيب ولا تحرك ساكنًا، دفعها التُربي فانقلبت على ظهرها وعيناها مفتوحتان على مصراعيهما، بهما أحاسيس ودلالات كثيرة ومتباينة، الغضب والحسرة والضيق والإهانة والضعف والهوان، كانت تلك أخر رسائلها للبياض وزوجته والتُربي، بل وللعالم أجمع..

ماتت جدة داليا وهي تحتضنها بعدما أدركت من قطرات الدم وبقعه على فستانها ما وقع لها، ماتت بعدما انقبض قلبها فعانى انفصامًا كهربائيًا أوقف الدم في عروقها ومنعه من الضخ في حجراته بسبب انقباض عشوائي ناتج عن

الصدمة، ماتت دون أن تفصح عن مشاعرها تجاه نجلتها التي ارتكبت خطيئتين..

نظر الكلاف بجزع إلى البياض وزوجته:

- دي ماتت يا سعادة البيه..

- خلصنا بسرعة.. تاويهم هم الاتنين في قبر واحد يلا.

حمل الكلاف جثة داليا ونزل بها إلى قبرها المظلم وفي الأعلى جذب البياض جدتها من قدميها فسقط حجابها ليظهر شيبها زاحفًا في الرمال، راسمًا مع جسدها لوحة لخصت حياتها البائسة..

وارى التراب عليهن واستقل البياض وزوجته السيارة التي وجهها مختار وأدار محركها نحو باب الخروج، أما التُربي فتسلم حصته من الأموال الملطخة بالدماء لعله يجد بها نفعًا في حياة فانية سيرحل عنها ليزامل داليا وجدتها بعد حين.

كان الوقت متأخرًا عندما انتظر "حسن" على ناصية أحد الشوارع يتناول طبق فول بالزيت الحار، وحوله عدد من العمال الذين تجمعوا لتناول سحورهم قبل الذهاب إلى البناية التي يشيدونها ويقومون عليها، هناك بالقرب من منطقة الزهراء حيث الأبراج العاتية التي يتولى معظم المقاولين ممن جاءوا من الوجه القبلي بناءها..

لا يعرف لماذا طلبته ليلى زوجة البياض في هذا التوقيت، ولماذا أصرت على مقابلته في هذا الوقت المتأخر، كل هذا يجول بخاطره إلى جانب تساؤلاته المتلاحقة حول سبب مغادرتها له في أخر مرة تقابلا فيها في منْزلها..

كانت نسمات الهواء عليلة رغم حر الصيف، قاطع صوت سيارتها ضحكات العمال وتندرهم بلهجتهم التي تثير ضحك حسن، والتي لا يتبينها في معظم الجمل التي تقال حوله، نظر إليها بعدما أحنى برأسه قليلاً إلى الأسفل

وأسنانه تملأ فرجاتها بقايا الفول والجرجير.. أنهى أخر لقمة في طبقه ومسح يديه في قميصه النصف كم وركب السيارة بعد أن حاسب وأعطى بقشيشًا..

فور ركوبه انطلقت ليلى بسيارتها بسرعة كأن أحدهم يلاحقها ويتربص بها، سرعة تركت الإطارات على إثرها علامات في الجسر تعكس طاقة غضب أو ضيق وربما تشتت وحيرة وقلق..

لا تتحدث ليلى مطلقًا.. وشفاهها لا تنفرج إلا أمام سيجارتها وهي تنفخ بها مكنون صدرها المكتوم، تسلك الشوارع كأنها تائهة تدور في دائرة مفرغة حتى تعود لذات البداية، بجوارها حسن وقد جلس يجز ضرسًا على الآخر.

- فيه إيه يا ليلى منْزلاني على ملا وشي ليه..؟

- مخنوقة يا حسن ومش عارفة أعمل إيه..

- مخنوقة! من إيه.. مالك، أنا لحد دلوقتي مش عارف فيه إيه.. سيبتيني أخر مرة وجريتي كأن فيه مصيبة..

- ومش أي مصيبة.. إحنا في ورطة..

- إحنا مين؟! وورطة إيه..؟

- أنا ومحمود وخالد ابننا..

- فيه إيه قلقتيني..

- هقولك يا سيدي يمكن تلاقيلي حل.. خالد كان مصاحب واحدة زميلته فقيرة من حارة كده في مصر القديمة، الواد غلط معاها والبنت حملت ولما راحت تعمل إجهاض ماتت في العملية، وكل دا كان في اليوم اللي سيبتك فيه ونزلت جري..

- يا نهار أسود.. وعملتوا إيه..

- رحنا المدافن ودفنّاها بعد ما اتفقنا مع التربي ولا من شاف ولا من دري.. بس أنا مش مطمنة..

- إطمني يا ليلى مادام محدش خد خبر.. طيب البنت دي ليها أهل يسألوا عليها..

- خالد قاللي إن ملهاش غير جدها. مممم. ودي ماتت من كام يوم.

- آه.. يعني مقطوعة من شجرة، طيب متقلقيش نفسك ورروقي كدة، فين خالد وأبوه دلوقتي..

- سافروا ليلتها على البلد، منها يريحوا أعصابهم، ومنها يجهزوا الفطار اللي محمود عامله هناك.

- ممممممم عظيم..

- أنا محتاجالك جنبي اليومين دول. حاسة إن أعصابي باظت خلاص.

- أنا تحت أمرك يا حبيبتي.. من بكرا هجيلك، معلش بقى النهاردة ظروفي صعبة ووالدتي تعبانة شوية..

- سلامتها ألف سلامة.. طيب يلا هوصلك..

انطلقت السيارة.. أزاح حسن مقعده للخلف قليلاً حتى يمدد ساقيه الملتصقتين، ينظر إلى ليلى بجواره وهي تلف عجلة المقود دون تركيز ويبتسم خلسة، ابتسامة خبث وتشفي في حال هذه العائلة المحترمة! ينظر وعلى وجهه علامات النصر والظفر، يفكر في أيامه القادمة عندما يخبر البياض أنه يعلم كل شيء وأن إصبعه تحت ضرسه، يفكر ويتلهف للفرصة التي واتته أخيرًا ليضع يده على القناة

التي حلم بها منذ زمن، لا تكفيه أموال ليلى التي يتقاضاها وقتما شاء بعد كل عناق وكل جماع بينهما، يريد ما هو أكثر.. .

– حسن.. حسن.. حسن..

رددها مرات ثلاث حتى استفاق من خيالاته وأوهامه.. ها هما قد وصلا إلى منْزله، كان الفجر يؤذن في الأفق، قبلها ثم دلف خارج السيارة، وقف يبتسم إليها حتى اختفت من أمامه بعدما رمقته بنظرة قلق وارتها بالبحث عن ولاعتها..

-١٣-

جلس القرفصاء بعدما رفع جلبابه ممسكًا بطرفه بين أسنانه وهو يحملق في الأواني ويعدها، يراقب حسونة المنهمك في غسيل "المواعين" وتقطيع البطاطس والطماطم، المياه تغلي في إناء كبير ويقاد عليه حتى تلطخ بالسواد..

أفرغ عبده جيبه من كيس حَفَظَ بداخله أموال الإفطار المتبقية من بيعة الخضار الفاسدة، تلفت يمينًا ويسارًا وتجاهل سلامات وتحيات المارة، عندما بدأ يعد ورقة ورقة قبل شد الرحال إلى الجزار..

كان "السلاموني" جزارًا شهيرًا في قرية طنامل، اعتاد الجلوس أمام جزارته الممتدة والبارزة وسط محال كثيرة على نفس الشاكلة، بزيه الأبيض القصير الملون بدماء جاموسة بكر، يدخن الشيشة ويرمق المارة من النساء بنظرات المشتاق للحم أبيض طري لا يؤكل لكن يذاق، يخط شاربه وهو يقول "اللحم الأبيض يا أبيض"..

طنامل.. من أقدم القرى، كان اسمها من قبل "طاق النمل" وعندما قامت بزيارتها الملكة كليوباترا قدم أهلها لها فروض الولاء والطاعة، كما قدموا هدية للملكة قدرت وقتها بطن من الذهب على صواني من الفضة الخالصة، ومن وقتها سميت على إثرها باسم "طن مال"، وتدور الأيام وتمر العصور حتى أصبح اسمها الآن طنامل.

تُمثّل تلك القرية مركزًا لمصانع الأصواف وبيع اللحوم وبها يجلس متربعًا نقيب الجزارين، فتجد على ضفاف الرياح التوفيقي أكشاك اللحوم التي يتهافت عليها الجميع لرخص الأثمان، حتى انتشرت أقاويل وشائعات حول اللحوم ومدى صلاحيتها ومطابقتها لمواصفات مديرية الصحة.

لم يجد أبدًا وجهة غيرها.. فهناك ما يريد بأرخص الأثمان، يحمل ربع العجل أو نصفه حسب الحاجة وحسب المناسبة والمعلوم.. يعرفه الجميع السلاموني وغيره من الجزارين، وقد أضحت تلك المعرفة بوابته للدخول إلى دهاليز المدبح وخباياه..

هم من جلسته مستبشرًا ومستقبلاً زبونه المفضل.. بصوته الأجش وقهقهة الترحاب قال:

– المعلم عبده.. شاي وشيشة يا ولا.

عبده فاتحًا ذراعيه وفاه الذي أظهر ضروسه المتآكلة:

– سلامو عليكو يا معلم سلاموني..

سلاموني مستنكرًا بلين:

– غيبتك طولت المرة دي.. قفلت المطعم ولا إيه يا شيف؟!

– لا والله يا معلم بس الدنيا كانت نايمة وأنا كنت مسافر كده في مصلحة هقوللك عليها بعدين.

– طلباتك يا معلم عبده.. شكلك جاي على "عكمة" كبيرة..

– كبيرة أوي همتك معانا..

– في الخدمة.. ولا مؤاخذة نجيب من المحل ولا نفتح السلخانة..

حبس عبده دخان شيشته قبل أن يطلقه من "نخاشيشه" ونظر إلى سلاموني بابتسامة وعينين يفيضان قولاً:

– ودي عايزة كلام يا معلم..

– بس المرة دي الجاموسة كانت عشر وابنها مات في بطنها وموتها.. بس أنا جيبت دكتور البهايم طمني، آه.. أنا مأأكلش عيالي لقمة حرام.. كله بما يرضي الله، وإحنا في أيام مفترجة، والله لولاش السُكر وإن الدكاترة محرجين علي أصوم ما كنت أفطر ولو على رقبتي.. بس ربنا سبحانه بيقول ولا ترمي نفسك في التهلكة..

– ربنا يشفيك يا معلم.. ربك رب قلوب، طب والله وما ليك علي يمين، أنا باخد علاج القولون من ٦ شهور ولسه أهو زي مانت شايف، الناس تقولك شاب وكسيب والعين علي لحد ما جابوني أرض يا معلم، يلا ربنا كريم..

نادى سلاموني أحد صبيانه وأشار إليه بتجهيز الجاموسة للشيف عبده، وواصل الاثنان تندرهما عما مضى وما هو آت، وسرد عبده قصة الإفطار الجماعي الذي يقوم عليه

محمود ابن الحاج البياض عين أعيان قرية "الحجر" رحمه الله..

ساعات مرّت عليهما وقارب آذان المغرب على الإذعان للصائمين بالإفطار، كان صبية الجزار قد انتهوا من تقطيع لحمة الميتة ووضعوها في صندوق سيارة عبده الربع نقل..

-١٤-

منهمكًا في متابعة الإعداد لأحد البرامج التي تستضيف سياسيًا شهيرًا؛ يجلس بين فريق المُعدِّين الذين رضخوا للعمل بأجور ضئيلة في قناة البياض، بعدما نال منهم اليأس نصيبًا في الحصول على عمل مجزٍ ومريح..

حسن مرددًا كلماته البلهاء العقيمة، كعادته في التنظير والفتي والإفتاء، والجميع حوله صمٌّ بكم لا يعمهون أقواله الخرقاء، يؤمنون من خلف وجوه صفراء شاحبة ومضجرة، في روتين يومي لا يكسر حدته إلا يوم الإجازة، كان حال العاملين بالقناة المكفهرة وجوه من فيها..

الساعي يطرق الباب ويفتح في أنين وأزيز، يطل برأسه فقط كثعبان أقرع يخرج من جحره لاصطياد فريسته..

– الريس عاوزك يا أستاذ حسن.

ينظر حسن حوله بعدما ستَّف أوراق الحلقة:

- طيب قول له أنا جاي أهو.

مهرولاً إلى مكتب البياض، كان الأخير قد جلس منصتًا لتصريحات على التلفاز يطلقها رئيس الحزب، ويحث فيها رجاله ومرشحيه على بذل الجهد لقطع الطريق على المتربصين بمجلس نوابه المقبل..

نهض البياض عند رؤية حسن:

- خد كلملي الشيخ عيسوي دلوقتي حالاً، اسأله إيه الأخبار والإفطار هيبقى جاهز إمتى؟

- حاضر يا ريس أوامرك، أيوة يا شيخ عيسوي يا ترى إيه الأخبار.. الريس عايز يطمن..؟

عيسوي بلهجته الريفية:

- طمن الريس يا أستاذ حسن كله تمام والفطار يشرف.. كله زي ما متفقين.

نظرة وإيماءة طمأن بهما حسن رئيس قناته اللاهث وراء كرسي البرلمان، وأغلق الخط مع عيسوي بعدما أكد عليه مرة أخرى أن يحسب حساب كل شيء..

همَّ حسن بوضع الهاتف على مكتب البياض قبل أن يهتز في يده لمكالمة واردة، صعق لها تمامًا، كان الرقم هو ذاته.. كانت هي تلك..

لماذا تحادث البياض؟ من أين تعرفه أصلاً..؟ تساؤلات دارت في خاطره لجزء من الثانية، وصوت عالٍ يناديه أفاقه من حالته، حاول تدارك ما فيه بعدما ضغط زرًا ليصمت الهاتف..

الصمت! لا.. يريدها أن تتحدث، أن تبوح بالأسرار وما تخفي القلوب، الشك تملك قلبه والخيالات ماجت به وراجت كأنها خيالات مراهق رأى أستاذته الشابة الصهباء في المدرسة فعاش معها في لا وعيه وقتًا من اللذة..

خرج من المكتب جامعًا أشيائه واستأذن بحجة تعب والدته المفاجئ، لا يدري هل يحدثها ويصارحها بأنه رأى رقم هاتفها واسمها يلمع على شاشة البياض أم ينتظر..

استقر به القول على مهاتفتها وطلب لقائها:

- ألو.. إزيك يا "وعد" عاملة إيه؟

- حسن حبيبي إيه الأخبار، وأخبار الشغل؟

- كله تمام إنتي واحشاني جدًّا تعالي نتقابل النهاردة بالليل نتغدى سوا..

لثوان غاب صوتها في محاولة لتلقف الكلمات والأعذار، فاليوم يأتيها البياض قبل سفره إلى البلدة من أجل الإفطار:

- إحم معلش يا حبيبي مش هينفع النهاردة لأن عندي حاجات كتير وكمان حاسة إن أنا مرهقة جدًّا..

يستمع إليها والشكوك تضرب في رأسه كمخلب قط:

- مممم طيب يا حبيبتي مفيش مشكلة.. تحبي أجيبلك دكتور طيب؟

قبل أن يكمل جملته قاطعته:

- لا مالوش لزوم دول شوية تعب بسبب الإجهاد والأرق.

أغلق الاثنان الهاتف، التقطت "وعد" أنفاسها بكوب ماء كان بجوارها، وهام حسن على وجهه في الشوارع وقد عقد العزم على معرفة حقيقة الأمر.

• • • •

راقب حسن سيارة البياض التي انطلقت في مساء اليوم ذاته نحو كابينته، المعروف عنه قضاء أوقات اللذة والمتعة بها، انتظر حتى غاب السائق عن الأنظار، وقد نام كعادته في السيارة حتى إشعار آخر من البياض بالذهاب هنا أو هناك..

تسلل صاحبنا نحو شرفة الكابينة وقد رأى ما توجست به نفسه خيفة..

كانت هي.. "وعد" بقميص تركواز مستلقية على ظهرها ومحتضنة البياض في لهفة ومجون، تمارس عليه حركات امرأة لعوب تحركها رغباتها مع هذا البدين أو ذاك

العجوز، لم يطل حسن النظر، ليس بحاجة إلى دليل أكبر من قبلات خطيبته المطبوعة على شفاه البياض ورقبته..

انزوى راحلاً وقد اشتد غيظه وحنقه، وبدأت تحركه دوافعه لفضح البياض وابنه وكشف جريمتهما، أو ابتزازهما لنيل أكبر حظ من ربح يداوي به خيانة "وعد" وعاره هو، نعم.. عار الرفض الذي يلاقيه من الجنس الآخر ولا يجد له حلاً، عار الخدائع المتتالية التي لا يخرج منها إلا على خديعة أخرى..

عاد إلى منْزله وقد استقر به الحال على تنفيذ خطته بعد الإفطار الجماعي المنتظر وقبيل الانتخابات بقليل، إنه الوقت المثالي كي تستفز سياسيًا فاشلاً وراشي يسلك كل الطرق للوصول إلى غايته، هو الوقت الذي تمتلك فيه القدرة على أن تضربه في مقتل، أن تشيع الدخان حتى لو لم تكن هناك نار، أن تطلق عيارًا يدوي في أفق البلدة والدائرة فتسقط اللوحات اللامعة والعالية فوق رأس صاحبها..

اختار حسن طريق الانتقام من الزوج الجاني والمخدوع في آن معًا، البياض الذي يجهل خيانة زوجته مع حسن، المتناسي لقول رسوله "كما تدين تدان"..

ذهب إلى القناة في يومه التالي كعادته، طمأن الجميع وعلى رأسهم البياض على والدته المريضة كما أبلغهم سلفًا، وهاتف "وعد" مصطنعًا الاطمئنان عليها، وهو يجز على نابيه، دورها سيأتي لاحقًا.. هكذا قال في سريرة نفسه، كلٌ بأجل وميعاد، أما الآن فوقت التفكير والتدبير لما هو آت..

-١٥-

انتصف الليل وهو راقد على الأرض في غرفة المعيشة بشقته التي كان أبوه قد ابتاعها له، وحيدًا إلا من زجاجات خمر وتذاكر هيروين ملأت المنضدة أمامه، مغمض العينين محاولاً تناسي جريمته وجريمة أبويه، فيا ويله من ذنب سيحمله طوال عمره، وياله من إحساس مقيت، حتى إن لم تكن داليا إلا سلعة اشتراها للمتعة..

في غيبوبته تدخل عليه هي بسكين ملطخ بالدماء، ينهض مفزوعًا من رقدته في الظلام الساكن، لا يتبين حقيقة ما يحدث ولا كيف وصلت إليه وهي راقدة تحت تراب قبرها، كلما حاول النهوض سقط أرضًا حتى التصق وجهه بقدميها الغارقتين في الدماء أيضًا، ضربات قلبه تتسارع، ونحيب وتوسلات بأن تعفو عنه..

داليا لا تنطق ببنت شفه ولا تومئ بإيجاب أو سلب، داليا لم تأتِ في الأصل، لم تغادر تربتها وحسابها القائم في العالم

الآخر، لم تفارق جدثها الموارى عليها التراب، هي في عقله الباطن الذي يشبه كوكبًا يرفض الهجرة من مجرته الكونية.. هو من غادر إليها بعدما تناول جرعة زائدة، صف الهيروين في خطوط بواسطة موس على سطح مرآة، عكست وجهه الشاحب وعيناه الحمراوتين وأنفه الذي ثبت في فتحته أنبوب استنشق به تذكرة واثنين، لم يكتفِ بذلك وكأنه أراد الانتقام من نفسه التي أمرته بإعدامها، أخرج ولاعته بعدما وضع فوق لهيبها تذكرة أخرى على ورق ألومنيوم، ثم استنشق أبخرتها المتصاعدة ليحصل على تأثير أكبر، وفاقدًا أكثر أيضًا..

وساوس شيطانه لا تفارق أذنيه، وصورة ضحيته تلوح في أفقه وتحاصره كزنزانة صماء لا هواء يدخلها، التقت رغباته مع بؤسه فحقن نفسه بتلك الحقنة التي انتشلته من عذابه إلى عذاب آخر، كان قد أذاب الهيروين في ماء وأضاف إليه قطرات من الليمون في ملعقة، حقن نفسه في الوريد فسكنت آلامه للأبد، حشرجة الموت في الحلقوم، وأيادٍ ترتفع لأعلى بشكل تائه بعد فوات

الأوان، أزيز الزجاجات يكسر سكون الليل وقطرات الخمر تتدفق متتابعات في أركان الغرفة وعلى جسد خالد العاري.

اغتسل بالخمر مثلما عاش مدمنًا له ولشهواته.. مات نتيجة تناول جرعة زائدة من مخدر الهيروين أدت لتلف عروق جسده وأنسجته وعجلت بأزمة قلبية، لم تفد معها نظرات عينيه المرعوبة من مصير محتوم.

• • • •

في صوان ممتد بطول الشارع والبلدة خرجت أطرافه من المسجد المُعَد للإفطار، اصطف أهل البلدة قابعين على كراسيهم ووجوههم تصطنع الوجوم، يجلسون وهم "يتملطون" بألسنتهم ويهمهم كل منهم مع من بجواره..

يتندرون بحادثة وفاة ابن البياض ويفتون كعادة أهل القرى والمدن، راح أحدهم يغمغم بأن خالد مات في ملهى ليلي فهو شاب فاسق فاسد عديم الأخلاق، تربية

أمه كما يقولون، ومنهم من ذهب بخياله إلى أن الولد قتل على يد بلطجية خرجوا عليه على الطريق الدائري بمصر بعد منتصف الليل، وهو عائد من إحدى نزواته ومعه فتاة ليل قتلت هي الأخرى وسرقت أموالهما وكذلك السيارة..

العزاء لا يخلو من فتاوى القوم المتكررة، من يعلم ومن لا يعلم، آفة القرية لا تنقطع، ووجوه أهلها العابسة لا تضحك، البطالة والفقر ينهشان أجسادهم وأرواحهم، حتى قضت قسوة الحياة على ما فيهم من أمل في الغد، وما يميزهم عن غيرهم من كائنات خلقها الخالق في هذا الكون..

أضحت حياة الغالبية في صهرجت مزيجًا من الجلوس على المقاهي ليلاً والنوم نهارًا، لا يبرح المنْزل إلا قليل منهم، السعي إلى الرزق، آه.. مجبورين على قطعة الأرض التي تركها هذا الجد وذاك الأب، الأرض عرض، ولكن أي عرض بعدما استباحت أعراض!

يقف البياض والشيخ عيسوي وبعض الأقربين عند أول العزاء بباب المسجد، يتلقون التعازي بدم بارد من الجميع إلا محمود الذي ينفطر حزنًا على نجله الوحيد، خالد الذي عمل وراوغ وقدم الرشوة والتوى من أجل تمهيد الحياة له كي يحمل اسمه بعد مماته، الأفكار في عقله لا تأخذ راحة كأنها آلة في مصنع، لا تبرأ حتى ينتهي مخزون المادة الخام أو يرحل العامل عنها تعبًا، هيهات.. المصنع لا يتوقف والعامل بديله حاضر قبل الموعد، المواد الخام كثيرة ومتناثرة فى الأركان، ولا مفر لتلك الآلة إلا أن تتعطل فيذهب بها أحدهم إلى المهندس المختص، ممنية النفس أن يفتي بانتهاء صلاحيتها..

في صوان مجاور أصغر قليلاً من الآخر؛ كانت زوجة البياض قد جلست يحيط بها النساء متشحات جميعهن بالسواد، مقضب وجهها، فأدوات التجميل وقلم الروج والماسكارا غابت عنه ليكشف حقيقة شيخوختها، وقبح هيئتها التي دفعت أثمانًا كثير وجهدًا مضنيًا لاخفائها.. لا تتبينها إلا إن ركزت ودققت النظر.. تائهة في نظراتها لا

تدري إن كان هذا حقيقيًا أم خيال، لا تلتفت إلى الأخريات اللاتي جئن شامتات أو مواسيات أو متندرات، تحمل بين كفيها صورة ابنها ودموعها تسيل فتحجب هيئته الأنيقة، مكلومة تلوم نفسها وتعنفها، تحمل نفسها ذنبًا سرعان ما ستتجاوزه بفعل الوقت والأيام..

سكوت واجم وشفاه يابسة.. يجلسان وحيدين في القصر كأن على رؤوسهم الطير، لا تقطع السكون إلا حركة مفاجأة من قط عجوز يعيش هنا من سنين، ليلى غير مصدقة حتى الآن، وصراع داخلي كالبركان على وشك أن يثور بين ضلوع البياض، ما بين الاستكانة والعزلة حزنًا على ولده الوحيد الذي أضاعه بتصرفاته وغمط حياته العفن، وبين حلم الكرسي الذي اقترب أكثر من أي وقت مضى، ظل في تفكيره هذا إلى أن طرق الباب الشيخ عيسوي ومن خلفه زوجته بصينية طعام شهية، لكن لا نفس تطيق الطعام ولا الشراب..

يقف عيسوي بين البيه والهانم بوجه يصطنع العبوس:

– اتفضل يا محمود بيه كلك لقمة.. اتفضلي يا هانم.

- ....

- يا جماعة الحي أبقى من الميت، وإن شاء الله يجمعكم في جنة الخلد بعد عمر طويل.. بس مش كده لازمن تاكلوا لقمة.

- ....

- ديه دي، طب دا كلام، ما تتكلم يا محمود بيه دا أنت الراجل.. واجبك تقوي الست هانم.

استقام البياض وقلب النظر رافعًا رأسه إلى عيسوي:

- بارك الله فيك يا شيخ عيسوي.. اتفضل إنت وأنا هاكل كمان شوية مع الهانم.

- شكرًا على إيه يا محمود بيه، دا إنت خيرك مغرقنا.. همي بينا يا بت عشان الدكتور يستريح هو والهانم، همي..

رحل عيسوي وزوجته وانغلقت الأبواب على الاثنين.. ليلة قاحلة تأبى أن تنقضي، وشريط من الأحداث المشينة يجري أمام البياض وزوجته لعلهما يتعظا.

-١٦-

بسيجارة كليوباترا في فمه ووجه يتصبب عرقًا من حرارة الشمس؛ وقف مختار بقماشة قديمة يمسح زجاج السيارة انتظارًا لسيده الذي قرر الخروج أخيرًا والذهاب إلى محطته الفضائية، بعد أيام من العزلة منذ مات نجله خالد..

يخرج البياض مرتديًا نظارة شمس سوداء وبدلة من نفس اللون، يركب سيارته دون سلام أو كلام حتى يصل إلى مكتبه، ما إن جلس حتى جاءه العاملون من أجل تجديد التعازي والترحاب بالعودة التي أنارت اليوم والمحطة والعالم بأثره، يلتفت إليهم في عصبية غير متوقعة أن يعيدوا بث القناة بشكلها الطبيعي، وأن ينهوا هذا الحداد المعتم الذي استمر أسبوعًا كاملاً..

كانت القناة قد أوقفت برامجها بشكل فوري منذ وفاة خالد، بأمر من حسن مدير البرامج، واستمرت على هذه الحال إلى أن عاد البياض بعد مكالمة جاءته من ذلك الذي

يقبع على كرسيه لا يحدو عنه بعيدًا ولا يتململ، هزه بشدة بعدما نعى ولده، وذكره بما هو قادم وما هو أولى بالاهتمام والتركيز في المرحلة المقبلة..

انتفض البياض في مكالمته حتى كاد الهاتف يطير من يده، وما لبث أن اعتذر مرات عدة في نصف دقيقة إلى أن أُغلق الخط في وجهه، ليلهث وراء إيقاف الحداد المبتزل.

ارتمى على كرسيه بعدما أمر الساعي بإحضار فنجان القهوة وإبلاغ حسن بحاجته إليه، ما كان من الساعي إلا أن أخبره بغياب مدير البرامج على مدار الأيام الماضية، ثارت ثورة البياض مرة أخرى وضرب بيده على المكتب ضربة رن صداها في الغرفة كلها..

- دا مال سايب بقى.. محدش شايف شغله.. إنتوا فاكريني مت ولا إيه..

على حالته إلى أن أغمي عليه، أسرع عبد الله لإحضار كوب ماء وإبلاغ محمد عبده والعاملين الذين ملأوا الغرفة وطلبوا طبيبًا في الحال، كانت غيبوبة سكر نتيجة الانفعال الزائد، استفاق منها على خير وهو يكاد يغشى

عليه مرة أخرى، نصحه الجميع بالعودة إلى المنْزل ليرتاح قليلاً وهو ما كان بالفعل..

استند على مختار حتى باب السيارة الذي فتحه ابن أخته وألح على الذهاب معه إلى المنْزل للاطمئنان عليه، قبل أن يرفض البياض ويطمئنه أنه أصبح في أحسن حال وأنه يريد النوم قليلاً..

وصل محمود بيه إلى منْزله، دخل حتى ارتكن على كنبة قد وضعت في ريسيبشن الشقة، وفي تلفته على زوجته ومناداته عليها فوجئ بسلسلة مفاتيح ملقاة على المنضدة الزجاجية بجوار عدة التليفون، لا يصدق نفسه، يعرف تلك السلسلة جيدًا، فلطالما وسوست في مكتبه كلما جاءه حسن في طلب علاوة أو إجازة أو غيرها، ما الذي أتى بها إلى هنا؟! وأين حسن! نعم لقد تغيب عن الحضور للقناة وهاتفه مغلق.. انتفض واقفًا من جلسته:

– يا ليلى.. يا ليلى..

بصوت مرتبك تجيب من غرفة نومها في الدور الثاني:

– أيوة يا محمود إاانت جييت!

القلق والخوف يحتلان وجهها الذي تملأه قبلات حسن العنيفة وآثار أسنانه التي خطت في رقبتها البيضاء، ترتدي قميص نومها الذي ألقته قبل دقائق على حافة السرير حتى لا يقف حائلاً ولو حتى بسيط فى طريق متعتها اللحظية..

أسرعت فى النـــزول إلى البياض قبل أن يفاجئها هو بصعوده إليها، كان حسن قد خرج من باب الدور الثاني لسطح البناية إلى أن يهدأ الجو فيتسلل ويخرج إلى حيث عاد دون أن يراه أحد..

- إزيك يا محمود، إيه اللي رجعك بدري كدة؟!

وقف يتفحصها بعدما خبأ المفاتيح حتى لا تدرك أنه كشف أمرها.. لاحظ آثار نجاستها وتأكد أنه حسن ولا أحد غيره..

- أبدًا تعبت شوية وأغمي عليا قبل ما يطلبولي دكتور الحمد لله..

بصوت يحاول الخروج من خانة الرعب في منزل، مليء بعفاريت العالم السفلي:

- أغمى عليك إزاي.. فيه إيه؟

- نوبة سكر وعدت.. المهم هو حسن معداش عليا هنا.

زاغت ببصرها كأن حية لدغتها فما استحال معها دواء:

- حسن! لا! ودا ودا إيه اللي هيخليه يجي هنا؟!

- ممم لا أصله مجاش القناة النهاردة وموبايله مقفول فقولت يمكن يكون عدى علي هنا. عمومًا هطلع أريح شوية وأما أصحى أكلمه.

بتلقائية فاضحة زادت شكوكه وجعلته يتيقن مليون بالمائة:

- هتكلمه ليه.. هو فيه حاجة؟!

نظر إليها باستغراب وأومأ بالسلب قبل أن يعطيها ظهره إلى الدور العلوي، وهي متسمرة وقد انسحب الدم من عروقها..

امتلأت الشوارع بالصبية ذوي الجلاليب المتسخة والأعين المخبأة وراء خلايا الذباب والعماص، يشاهدون هذا العامل الكهربائي وهو ينصب لمبات النور أعلى صوان صغير أمام المسجد..

الصوان ذاته وكذا المسجد أيضًا من عزاء خالد قبل أيام؛ تحول إلى أنوار مضيئة وإفطار جماعي يضفي على البياض تقوى هي ليست فيه، وتدينًا غاب عنه حتى في شهر كريم ومبارك لم يذق حلاوته بصوم يوم واحد..

تبدل الوجوم من وجهه، وارتسمت فقط الابتسامة البهلوانية لهذا المهرج الذي يقف وسط حشد من الناس، يرمقونه وهو يتلوى مع نسناسه اليتيم وكلبه الأجرب، يمني النفس بجنيه أو نصف الجنيه حتى، هم في نظره لا يساوون أكثر من هذا، وهو في رأيهم البهلوان المتسول المجبور على حمل طفل وقفٍ يسح لأبويه من أجل أن

يقترب من النسناس ويلعب معه.. ابتسامة البهلوان زاحمها قلق مبرر من انتهاء اليوم على ما يرام وكسب أكبر عدد من التأييد..

الكرسي الملعون لا يفارق خياله، مات ابنه وزوجته تخونه، لكن هذا أبدًا لم يكن عائقًا أمام حلمه الذي ورثه عن أبيه وجده..

وقف مكفهرًا يتابع بترقب بعدما ارتكنت سيارته فأغلقت الشارع، تجمع حوله الشيخ عيسوي وبعض أكابر البلدة، فيما ذهب الأطفال يمسحون بأيديهم المليئة بجراثيم حمام عمومي أبواب السيارة وزجاجها، ينهرهم مختار بشدة ويضرب أحدهم، فيعاجله البيه أن رفقًا بالأطفال فهم أحباب الله، يقولها وإن كان له في الأمر مقدرة لألقى بهم في الترعة حيث البلهاريسيا تنهش أجسادهم، تلك السيارة وهذا القصر، البدلة السموكن والسيجار، إنهم هو.. لا يساوي شيئًا بدونهم..

جلس القوم على دكة أمام المسجد يتممون على كافة ترتيبات الإفطار، اللافتات تملأ الأرجاء، والأنوار بدأت

تومض لتعلن عن ليلة سيذكرها كل أهل القرية، ليلة لن تغيب عن بالهم يوم الامتحان وراء ستارة الصندوق البالية.. غاب برهة ثم عاد وقد أحضر سيارة ربع نقل مكشوفة عليها ميكروفونات عتيقة، يقودها شاب مراهق خط الشارب تحت أنفه "ديك النهار"، مختار يقف متوجًا إخلاصه لسيده بحنجرة تخرق الأذان، وتصل لمن هم داخل مخابئهم أو من هم نيام..

ذهب ينادي في الخلق أن الإفطار اليوم في مسجد "الدعوة".. إفطار ينظمه ويرعاه ابن البلدة البار، وحكيمها والمخلص لها ولأهلها محمود البياض، ينادي مناداة محدث النعمة الذي انكب على مائدة طعام وشراب بعد جوع وظمأ أيام وليال في الصحراء القاحلة.. من فوق سيارته ينثر حبات "الطوفي" على الأطفال الذين يلهثون وراء غبار السيارة وتراب البلدة، والنساء اللواتي فتحن أبوابهن وشبابيكهن لمشاهدة المولد..

أما البياض فلم يفارق جلسته مع عيسوي متممًا معه قائمة بأسماء كبار القرية وأعيانها، وأرباب العائلات ذوي الثقل ممن سيحملونه إلى كرسيه المنتظر، طمأنه عيسوي أن الجميع في الموعد حاضرون، ومع أذان المغرب سيرتوون ويأكلون حتى شبع لا يطلبون بعده الطعام أيامًا..

في جلستهم، واصل عمال الفِراشة ما يقومون به، فافترشت سجادة حمراء كالسجاجيد الهوليودية، وتزين المسجد بفوانيس رمضان، وامتدت الموائد في أنحاء الجامع بدوريه الأرضي والعلوي..

-١٨-

في طريقه إلى القرية الموعودة جلس حسن وبجواره "وعد" في سيارة ملاكي استأجرها خصيصًا للسفر، منغمسًا في تفكيره فيما بعد الإفطار، في نظراته للحقول الممتدة على جانبي الطريق يرسم خطته لابتزاز البياض والانتقام من "وعد"، هذين اللذين خاناه ليزيدا أوجاعه القديمة التي ظن أنها انتهت..

عقد العزم على أن يصبح شريكًا في فضائية البياض وإلا فضح أمر ابنه وزجَّ به إلى السجن وأنهى حلمه البرلماني، واثق الخطوة يمشي نحو هدفه دون أن يدري ما يخبئه القدر له، فالبياض أعدَّ العدة هو الآخر..

ذلك اللص العجوز لن يفوت فعلة حسن وزوجته، فقط حفل الإفطار هذا يحول بينه وبين قتلهما، هي مجرد ساعات قليلة وينتهي الأمر برمته، لقد رتب البياض أوراقه يوم تأكدت ظنونه حول خيانة زوجته مع هذا الموظف.. حكم قتلهما صدر وفق قانونه ودستوره،

المسألة أسهل من شكة الدبوس لديه، فهي ليست المرة الأولى التي تتلطخ يداه فيها بالدماء..

في مقعده عاد البياض بذاكرته قبل أعوام عدة عندما كان شابًا، تذكر إحدى الليالي التي رأى فيها والده وقد سقط مغشيًا عليه بعد هزيمة مذلة في الانتخابات على حساب منافسه من البلدة ذاتها. كان "الوحش" صاحب سيط كبير في البلدة، يحبه الكبير والصغير، لم يطرق بابه أحد إلا وخرج من عنده مجبورًا وداعيًا له وفرحًا.. اعتاد دخول الانتخابات واعتاد النجاح أيضًا.. لم تنجح معه محاولات البياض للتنحي جانبًا أو حتى كسب مؤيديه بالمال..

خسر البياض الجد أمامه ومات متحسرًا بعدها بأيام قليلة، وكاد الأمر ذاته يتكرر مع والد محمود في تلك السنة لولا أن سارعوا به إلى الأطباء فعاش ما تبقى من حياته بشلل كامل، لا يقوى على الكلام ولا الحركة..

تذكر ليلتها عندما خرج متخفيًا بعد منتصف الليل ودخل إلى قصر "الوحش"، فقتله بطعنات متفرقة اخترقت صدره

ومزقت قلبه ليلفظ أنفاسه أمام مرأى محمود الذي وقف ينظر نظرة نصر والسكين تقطر الدماء على أرضية الغرفة وعلى يديه.. لم يصلوا إلى القاتل رغم التحقيقات المضنية، وعاش محمود مخبئًا سره إلا عن والده..

انتظر سنوات قليلة حتى فتحت المحافظة المزاد العلني لشراء قصر "الوحش"، فالرجل كان عقيمًا وتوفيت زوجته قبله بعد سنوات، عاش وحيدًا مع خدمه ملهيًا في تجارته وأعماله البرلمانية..

اشترى محمود القصر، ورغم هجرته للبلدة واستقراره في القاهرة لم يفرط فيه أو يعرضه للبيع؛ أصبح دائم التردد عليه في كل مناسبة تحين للذهاب هناك، فهناك ثأر لوالده وجده، ومن شرفة هذا القصر سيعلن الأفراح والليالي الملاح عندما يفوز بالكرسي، استفاق الباشا من ذكرياته وأسراره على نداء حسن و"وعد" التي غطت شعرها بطرحة من التُل لا تُخفي شيئًا:

– كل سنة وإنت طيب يا محمود بيه.

همّ من مقعده وقد مدّ يده إليه وأحكم قبضته وهو ينظر في عينيه مباشرة:

– وإنت طيب يا حسن.. نورت إنت وخطيبتك.. اتفضلوا..

تلفت البياض حوله فلمح واحدة من الفتيات قد وقفت بالقرب منهم إذا احتاجوا شيئًا ما، فناداها للذهاب بـــ"وعد" إلى مدام ليلى والحريم حتى تستريح من عناء السفر قبيل الإفطار، ثم تحول إلى حسن عاتبًا عليه بشيء من اللؤم تغيبه عن القناة، ودلعه في العمل الأيام الماضية منذ وفاة خالد وابتعاد البياض عن مباشرة العمل بشكل أكبر، وهو الأمر الذي قابله حسن بإيماءة خجل تخفي ضيقًا وحنقًا.

-١٩-

أنهى الأهالي ما يقومون به.. فأغلق حمدان ملعبه وأسرع إلى منْزله فاغتسل وارتدى جلابيته البيضاء الناصعة، المهندس عنتر انتهى هو الآخر من جلسته مع هذا الذي جاءه ليمرر له أوراقًا تسمح بالبناء على قطعة أرض زراعية بعدما أخذ عربونًا معتبرًا..

فتحية استيقظت من نومها على رنين هاتف "وعد" لها، الجميع يجري يلملم حاجاته من أجل الإفطار، دقائق ويرفع رائف صوته مؤذنًا لصلاة المغرب وانتهاء ١٦ ساعة من الامتناع عن الطعام والشراب..

الشيخ عيسوي شمّر أكمامه، حائرًا بين الشيف عبده وبين الأهالي الذين ملأوا باحة المسجد هم وأولادهم في ضجيج معتاد وتأوهات معدة مغضوب عليها لم تحرك ساكنًا منذ سحور أمس.. جلس الرجال في الدور الأرضي، فيما وضعت النساء رحاها في الدور العلوي،

كل رجل يحوط ابنه بين ذراعيه ويبتسم للمحيطين بشكل فاتر..

البياض جلس ومِنْ حوله أعيان البلدة وكبراؤها، يتحاكون فيما يحدث بالبلاد وما ينقص القرية وأهلها، يحثهم من فينة وأخرى على دعمه في الانتخابات المقبلة، يومئون له بالترحاب والتأييد وفي نظراتهم لبعضهم البعض يسخرون منه ومن عائلته وتاريخها فى اللهث وراء المناصب، يتندرون في جلستهم من وراءه حول تجارته في المخدرات التي يعلمها الجميع.

مائدة السادة ممتدة في بهو المسجد يترأسها البياض كرئيس مجلس، يدق بشاكوشه الخشبي فينصت له الجميع فى أدب جم، الخيالات تكاد تقتله، والأحلام كطائرة ورق يمسك بخيطها ويعجز عن إعادتها إلى الأرض حتى لا تهرب أو تنشبك في فرع شجرة أو جريدة نخل فتتمزق..

جلس الأعيان ببدلهم وجلاليبهم الفاخرة يزيحون من اقترب منهم، ويتمنعون في مد أياديهم للحرافيش الذين ملأوا المسجد، الحرافيش.. فقراء الزفة وعبيدها، فسدة

لا يقلون شيئًا عن الأعيان، في ملامح وجوههم المشققة ترى حسرة على واقعهم المؤلم، وحقد على ذوي القصور والسيارات الفاخرة، ظروف أضحت حِجتهم ومبررهم لغشهم ليل نهار..

الشيف عبده يلف على الصائمين القائمين ومن خلفه حسونة بإناء ضخم مليء باللحوم منتهية الصلاحية التي ابتاعها من السلخانة، الرائحة نفاذة لا تنم عن شيء قبيح..

كلٌ في لهفة ينتظر اقتراب عبده منه فينال منابه، لحم أحمر أو قطعة من الضلع يمصمص فيها ويروي أسنانه المتهالكة من الفول والعدس.. يسارعون بمد أيديهم، يدفنون الطعام في "حجرهم" وفي فم أبنائهم، يتنافسون أيهم أكثر جشعًا، لا يبالون أين هم ومتى.. لا تحرك السور القرآنية المبروزة على حيطان المسجد ساكنًا فيهم، كتلك التي ملأ بها عيسوي منْزله ولم يفهم معناها قط..

لم يكن حال النساء بأقل مما يفعله أزواجهن أسفل منهن.. يتجمعن حول "ليلى"، يتملقنها كعبيد يريدون من سيدهم

العتق أو الرضا على أقل تقدير، يضحكن على كلماتها السخيفة وروحها الجامدة بين خلجات صدرها المقتول منذ زمن، لا تأبه بما يدور حولها ولا النساء الكثر هؤلاء، تسترق النظرات إلى "وعد"، تود لو ترميها بخنجر مسموم فيمزقها وتنهي أمل حسن فيها، فلا تريد شريكة لها في هذا الذي يشبع رغباتها وشبقها المريض..

"وعد" انزوت في ركنها مع خالتها فتحية، يتندران بمجون هامس عن أحوالهما، كأنهما في سرير يضاجعان رجالاً على الملأ بلا حياء أو خجل..

مسح عبده عرقه المتصبب من وجهه بعدما وزّع الأطعمة عليهم كبيرًا وصغيرًا، راح يقف عند أوانيه الكبيرة التي لا تزال ممتلئة، بإشارة جمع حسونة ما يقدر على حمله من طعام زائد سيوفر عليهما كثيرًا الأيام المقبلة وخرج دون أن يلاحظه أحد..

عيون الصائمين زائغة بين النظر إلى ساعاتهم وهواتفهم التي ضبطوا منبهاتها بصوت أذان يذكرهم حين الغفلة،

وبين رائف الذي حضن الميكروفون بين أيديه في انتظار انقضاء الدقيقة الأخيرة بيومهم الحار هذا..

رائف يؤذن لصلاة المغرب.. الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يهم القوم بشرب أكواب الماء التي كسرت ألواح الثلج بداخلها، ماء وتمر وعصائر بأنواع شتى، سباق لا يعرف قواعد أو قوانين، يمنون النفس لو أنهم يمتلكون عشرة أيادٍ تساعدهم على التكويش على أكبر قدر من الأرز والخضار واللحوم، دقائق صمت لم تلبث أن تبعتها صيحات هنا وهناك، الأيادي ترتفع إلى أعلى، إلى حسونة والشيف عبده تطلب مزيدًا من الطعام هنا، يملأون أفواههم وبطونهم، لا يأبهون بشيء بغيض ربما يكون قد اندس أو ما شابه، لا يميزون طعمًا، لا يأكلون ثلثًا لطعامهم ويدخرون ثلثين للشراب والنفس، الطعام يكاد يصل الترقوة، البطون تنتفخ والأيادي التي ستحاسب عن أفعالها لا تتوانى في جلب الطعام على مقربة أكثر..

لا فرق بين غني وفقير في نظراهم وضحكاهم الصفراء الأخيرة، بقايا الطعام ملتصقة في أسناهم ولثاهم، وبقع البسلة والبطاطس تلطخ الثوب الأبيض الدنس.. رويدًا رويدًا تقل طاقتهم، يتوارون بكروشهم إلى الحوائط المحيطة والعمدان الشاهقة التي وقفت شاهدة على مشهدهم الأخير..

الأعين تزيغ وتخرج من بؤبؤها، اللحوم التي ملأوا بطوهم منها لم تكن إلا سُم، لحوم جاموس ميت مسموم كموتتهم التي لن ينقذهم أحد منها.. الأذرع تمتد لأعلى طلبًا للنجاة، إلى رهم الأعلى الذي وقف ينظر على مشهد اعتاده منذ أغرق قوم نوح وسخط قوم لوط وعصف بعاد وثمود..

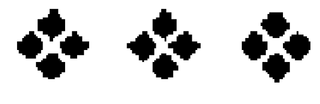
البياض تخنقه كرافتته وكذا أعيانه المجتمعون، لن يخرجوا إلى سياراهم الفارهة التي تملأ محيط المسجد، لن يبرحوا موضعهم هذا إلا إلى قبر موحش مظلم روى عنه أساطير..

البطون تتمزق والمعدة تود لو أنها واصلت صومها، يضعون أيديهم داخل حلوقهم، محاولات يائسة لإخراج سمٌّ تغلغل في العروق وانفلت من قبضتهم، آهات تتعالى وبقايا طعام يلطِّخ وجوه من سقط عليه مفارقًا دنياه اللاهية، هذا لن يعود إلى قهوته، ولا ذاك سيعود لمرافقة درج أمواله المغلق بإحكام عند ملعبه..

البياض يقاوم ساعة لن ينفع معها رصاصة كتلك التي قتلت "الوحش" قديمًا، وحسن في شهيقه الأخير لن يحصل على مراده بعد حياة جنى فيها على نفسه وآخرين أكثر مما ربح، الرعب يملأ وجوه فتحية و"وعد" وليلى والأخريات، روائحهم الحقيقة تثير فضول عذرائيل المنتشي بغنيمته الكبيرة، آلامهم تغذي روحه، ورعب وجوههم يمنحه جرعات أكبر من الضحك واللهو..

حائر في إنهاء مهمته سريعًا أو التأني للاستمتاع بمشهد ضِعاف النفوس من المذنبين والضحايا، تجار فسدة وانتهازيون، بغاء عاشوه لاهين وغش فى الأثمان والأسعار، الموبقات السبع التي حذرهم الكتاب منها..

عذرائيل يمزق أجسادهم ويلهو بروحهم إلى أعلى وإلى أسفل، الدماء تسيل من أفواههم وأنوفهم وآذانهم، ذهب الظمأ وابتلت العروق وليتها لم تبتل، الأعين تكافح غفوتها الأبدية، لأجل فرصة جديدة لن تحمل توبة نصوحة، السابقون يتلألأون في أفق المسجد مكفهرين، وقد تبدلوا لأشباه وحوش مفترسة تنتظر دفعة جديدة ستدخل إلى السياج لتؤدي خدمة مليك بالسوط في عالم سفلي مظلم وقاحل..



النهاية

المؤلف في سطور

- قاص وصحفي مصري من مواليد محافظة أسيوط بصعيد مصر
- تخرج من كلية الإعلام قسم الصحافة. جامعة القاهرة عام ٢٠١٣
- مؤسس الموقع الإخباري "مباشر ٢٤"
- رئيس تحرير راديو حريتنا، عام ٢٠١٢
- مدير تحرير وكالة الأنباء المحلية، عام ٢٠١٤
- عمل بعدد من الصحف والمراكز الحقوقية أهمها: الجريدة الكويتية العرب القطرية، التحرير المصرية، جريدة الأهم، شبكة الإعلام العربية، جورنال مصر، مركز أندلس لدراسات التسامح، مركز صحفيون متحدون
- الإصدارات :

- رجل العباءة : وقصص قصيرة أخرى

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- الإفطار الأخير : رواية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م

- البريد الإلكتروني: Hesham.awad33@yahoo.com



(+2) 02 27270004 (+2) 01288890065

www.shams-group.net



الأذرع تمتد لأعلى طلبا للنجاة.. إلى ربهم الأعلى
الذي وقف ينظر على مشهد اعتاده منذ أغرق
قوم نوح وسخط قوم لوط وعصف بعاد وثمود..

هشام شعبان


ISBN 9789774932304
9 789774 932304